لبيك ! لبيك ! . . .

للأستاذ كرم ملحم كرم

رأى أديب دمشق فاضل أن يسألني ماذا أعني بقولي : « إن للتوراة والأنجيل والقرآن من الرواية أكبر نصيب » ، وعليّ أن أوضح للأديب الكريم ماذا أعني وإن يكن فيما أوردت في مقال « ما هو أدب اليوم ؟ . . . » بيان مسهب جليّ .

فقد تحدثت في أدب اليوم عن الرواية ، وقلت إنها ركن الأدب في كل عصر وكل آن . أما القصد منها فلا يعدو تغذية النفس بالمواعظ ، والحث على الفضيلة ، ومحاربة الفساد ، وقد تخرج روايات كثيرة عن هذا الهدف ، فينصرف قائلها أو واضعها إلى امتلاك سامعيه أو قرائه بحوادث رائعة مدهشة ترمي إلى التفكهة وقضاء الوقت ، والوقوف على غرائب لا وجود لها في أحيان كثيرة في بحر مخيلات ناسجيها .

والرواية نوعان : منها التاريخية ومنها الخيالية . بل هي محيط واسع تشمل الحقائق والأكاذيب ، تشمل الملموس المحسوس والخيالي المجهول . فمن حق الراوي أن يتفنن في سرد حكاياته على ما شاء . له أن يستعين بالتاريخ وأن يسخر بالتاريخ . له أن يقدس الحقيقة وأن يعرض عنها .

فهو حرٌّ مطلق في أن يقول ما شاء . وما يقوله رواية تختلف قيمتها باختلاف قدر قائلها وقوة تركيبها ومن تتناول من الأفراد .

والكتب المقدسة تحمل روايات عديدة . ففي كل فصل من فصولها رواية ، وإننا لنبدأ بالتوراة . ففي سفر التكوين رواية ، وفي تمرد الملائكة وسقوطهم إلى الجحيم رواية ، وفي عصيان آدم وحواء مشيئة الله وأكلهما الثمرة المحرمة رواية ، وفي حكاية ابراهيم وهاجر رواية ، وفي موقف عيسو من أبيه اسحق رواية ، وفي حب يعقوب لابنة خاله رواية ، وفي حكاية يوسف وإخوته رواية ، وكم من حكاية وحكاية في التوراة . فالكتاب يجمع بين دفتيه حكايات العهد القديم في معظمها .

ولننتقل إلى الانجيل . فالمسيح نفسه صارح سامعيه بأنه يخاطبهم بالأمثال لكي يفهموا . فحدثهم عن الابن الشاطر ، وعن تجار الوزنات الخمس ، وعن العاملين في الكرم الذين أقبلوا في أوقات متعددة وتقدم رب الكرم أجراً واحداً ، وعن العذارى اللواتي يحملن زيتاً في مصابيحهن . وهناك حكايات لا تحصى ضربها المسيح مثلاً لتلاميذه وسامعيه .

والقرآن ما خلا من هذه الحكايات . خصوصاً الحكايات الواردة في التوراة . من حكاية سفر التكوين ، إلى حكاية سقوط الملائكة ، إلى حكاية زكريا ، إلى حكاية مريم بنت عمران ، وربك نفسه قال في سورة يوسف : « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ . إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » . فان قول ربك : « نحن نقص عليك أحسن القصص » دليل ناطق على أن القرآن لا يخلو من الرواية .

ولماذا يخلو من الرواية ؟ . أتكون الرواية نقيصة ؟ . أليس من شأنها تهذيب النفس ورد الخاطئين إلى الله اتعاظاً بما سبق ونال الضالين من عقاب وقصاص كما اتفق لعاد وثمود ؟ . .

فلا غضاضة إذاً على الكتب المقدسة ، والقرآن منها ، اذا حوت الروايات ؛ وفي الروايات عظات بليغة . ولا حاجة لقول الأديب الدمشقي عن التوراة والانجيل : « صاحب البيت أدرى بما فيه ! . . » ، فلا مجال في بحثنا للطوائف والنيل من الأديان . فالحديث حديث أدب ، والطائفية في واد ونحن في واد ، وكل قصدنا مما قلنا أن الرواية تتغلغل في أي مكان ، في الكتب المقدسة وفي سواها . كل قصدنا أن نقول إن الرواية انبثقت بانبثاق الكون ، وإنها أدب كل يوم . كل قصدنا أن نحث أدباء العرب على الاشتغال بالفن الروائي ، فان آثار هذا الفن تكاد تمحى في الأدب العربي .

أما أن نكون رمينا الى الحط من منزلة الكتب المقدسة ، فذلك مما لا نفكر فيه ولا يحق لنا أن نفكر فيه ، فنحن نحترم هذه الكتب ، وكيف لا نحترمها واللايين من البشر تدين بتعاليمها ، وتؤمن كل الايمان بآياتها ؟ . .

والكتب المقدسة تطبع العقول على الخير ، وتثقف النفوس وتقودها في الطريق السوي ، وإذا كان بعضنا يرتاب في أصلها وطريقة وضعها ورموزها ، فليس له أن يعلن هذا الارتياب لئلا